حجر الدولة

أحمد دحبور

ما من أحدٍ يُعطي مُهْلَهْ
والنهرُ من السُّحُبِ الحبلى أعلى،
يتنزَّلُ أشواكاً،
ويفِيضُ شِراكاً مُحْدِقَةً،
وينافِرُ ناراً حتى تدركني الشعلهْ
هل كنتُ معي؟
أم سافرَ مني طيرٌ أخضرُ
يحصي أعدادَ الموق،
ويهيِّءُ روحي للجولهْ؟
هل كنتُ معي
أم كنتُ اثنينْ؟
أم أنَّ الوقتَ يدقُّ البابَ،
حِراباً تَغْمُر جفنَ العينْ؟
فأطارد عمراً يوشكُ أن. . .
ويطاردني سيَّافٌ يُقْبِلُ مِنْ. . .
والوقتُ يلحُّ،
ولا أحدٌ يعطي مُهْلهْ
مهلاً. . مهلاً،
من يُمْهِلُ؟
كلُّ رياحِ الأرض على عجلٍ،
وغراب الصبر بل أملٍ،
والكرمل يدخلُ غرفةَ نومي،
يوقظني وأنا صاحٍ،
لا يعجبه أني من غير سلاحٍ،
ليس يفسِّرُ بل يستفسرُ عن نسبي
نتصامتُ حتى نصْفِ المشهدِ،
تدخلِ حيفا كاملةً،
فأكلِّمُ حيفا بالعربي
لا تطلبُ مفتاحاً مخبوءاً في زنّار الأمِّ،
لذاك اليومِ،
ولم تطلبْ شمعاً ودموعاً،
لكن تَطلب ألاّ أرجعَ في طلبي
يا حيفا لم أرَها إلا في لهفة أمي
والأحلامِ،
حلفْتُ: معاً،
وغداً. . ،
ومعاً ومعاً،
وغداً سنكونُ،
ولولا حلفاني ما كان ليغمض لي عينيه،
على الميعادِ، أبي
لكنَّ الوحشةَ، جنّياتِ الرعبِ،
مديدَ الوقتِ، فراغَ البيتِ، زعافَ الصمت، عواءَ الذئبِ. .
طبولٌ تطلبُنا،
والمهلةُ. . لا أحدٌ يعطي مُهْلَهْ
لم يسعفْنا سيفُ الدولهْ
لم يدركْنا سيفُ الدولهْ
غازَلْنا صفصافَ الوديان فلم يُقبِلْ أحدُ
أرسَلْنا الريحَ، فلم يَقْبَلْ أحدُ
ناديْنا الشمسَ، الظلَّ،
الدمعَ، الأهلَ،
الشوكَ، الفُلَّ،
العاقلَ، والمختلَّ،
فلم يسمعْ أحدُ
وعبْنا بالمفتاحِ فزادَتْ أقفالُ الدنيا
وغفَوْنا نكمِّلُ للرؤيا
فهبطْنا في قُزَحٍ كالسيفِ،
وأوَّلْناهُ إلى فرحٍ. . حتى عادَ البلدُ!
وفتَحْنا أعيننا:
هل هذا المشهدُ أسْوَدُ عن قصدٍ؟
أم أنَّ لأعيننا عملاً غير الرؤيا،
ومسافتها الرمَدُ؟
وصعدنا القمّة:
كانوا يحتفلون بنا
والساقي ينتخبُ الأقداحَ لنا
لكنّ شرابَ الساقي كان سراباً،
واجتمعوا في الحفلِ غياباً،
واجتمعوا عدداً،
وتُرِكْنا عند البابَ،
فمن مثلي
الحفلُ على شَرَفي وأنا المطرودُ من الحفلِ؟
الرؤيا لي، وليَ الرمَدُ
والموت الموت الموت الموتُ هو العدَدُ
ألهذا إن ألمْسهم يبتعدوا؟
فقطاري مصطنعٌ،
وبريدي مرتجعٌ،
ودمي بدَدُ؟
وعنيدٌ حتى لو لم يظهرْ في الرؤيا البلدُ

• • •

لم يدركْني سيفُ الدولهْ
ما كان هناكَ،
فقد هبطَتْ فئرانُ السقف على كتُبي
واستيقظَ ثانيةً، لكن ليموتَ، أبي
فئرانُ السقف غَفَتْ حَوْلَهْ
وتأجَّلت الجولهْ
وأنا أستمهلُ،
لكنْ. لا أحدٌ يعطي مُهْلَهْ

• • •

هل أخرج من حيفا ولداً،
لأعود إليها بعد العصر وتخرج من كتب أبداً؟
هل أنسى أنَّ غداً، ومعاً، وغداً وغداً. . .
يا حيف الأحلامِ المكسورةِ يا حيفا

هل تدخلُ ذاكرتي سيفا
وتفارقُها طيفا؟
هل كنتُ معي أم صرتُ اثنيْنْ؟
أم أني من أوهام رِبايَ،
عَقدْتُ على أنثايَ،
فأنجبنا طفلاً بِالدَّيْنْ؟

كلا.

فليلتمس العرّافُ كُفوفَ سوايْ
فأنا ما زلتُ أرى،
لا آخرَ ما أعطى الصرَّافُ،
ولكن ما تُمْلي عيناي
هي حيفا. ما زالت حيفايْ
ذهبَ الرمدُ
وأتى البلدُ
لم يسعفْني سيفُ الدولهْ

فلماذا لستُ السيفَ،
ووَعْدي حيفا؟
لستُ وحيداً فالأطفالُ يدي
والنهرُ غدي
وليَ الجولهْ

• • •

ما من أحدٍ يعطي مُهْلَهْ
لا أمهلُ من يستمهل، بعد اليومِ، هُنا
حتى لو أنَّ المطلوبَ الملهوفَ أنا
لم أمهلْ، يا حيفا، سيفَ الدولهْ
لكن أغلقتُ على جرحي جسدي
وفتحتُ يدي
فإذا بيدي حجرُ الدولهْ

تونس